في بلاغة الجملة الخبرية

أ.د. مصطفى عبد اللطيف جياووك*

تقديـــم:

إن هذا البحث يقوم على فكرة من الأفكار الكثيرة فالرصد القائم – هنا – يســتند إلى التفكــير النحوي المنســجم مع رؤية البلاغيين الذين يبحثــون في اللغة الإبداعية وظلالها بطريقــة مكثفة على طريقــة المعاصرين الذين يرصدون آلية عمل اللغــة بذاتها وفي حدِّ ذاتها.

ابتداع علم المعاني:

كان لعبد القاهر الجرجاني همّان جليان يقودان تفكيره في ابتداع علم المعاني، أولهما الدفاع عن علم النحو .. وعبد القاهر يلقب بالنحوي. وهو وارث المدرسة البصرية ونسبه فيها معلن، فهو يتحدث بأسم أبي علي الفارسي تلميذ السرّاج تلميذ المبرّد وبقية سلسلة النســب معروفة. وكان يســمع من معاصريه كلاماً عن أن علماء النحو اختلقوا قوانين وقضايا ومسائل لا نفع لها ولا هدف لها إلا الإدلال على الناس بها.

وينقــل مــن قول هــذه الجماعة: "... وإنمــا أنكرنا أشــياء كثرتموه بهــا، وفضول قول تكلفتموها، ومسائل عويصة تجشمتم الفكر فيها، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين وتعايوا بها الحاضرين...".(١)

وهــمّ الجرجاني الآخر هو أن الصواب والجمال الفني المعجز في القرآن الكريم لا يدرك إلا بإدراك أن لكل حالة من حالات الجمل النحوية معاني خاصة، وأن التعبير عن كل معنى ينبغــي أن يكــون بالحالة المخصصة لــه في علم النحو .. يكون جميــلاً إذا أخرج بالحالة النحوية الدالة عليه ولا يكون جميلاً بغير ذلك.

فالجمــال الفني لاحق بالنحــو متولد منه وذلك يفترض أن كل مــا يطرأ على الجملة من تقديم وتأخير وحذف وإثبات ولكل ما يدخل عليها من حروف المعاني بل لكل حرف منها إلى غــير ذلك من حالات الإعــراب معاني خاصة من عرفها وراعــى دلالتها في كلامه فهو البليغ الماهر.

وإذا كان علــم المعانــي متابعــاً لعلم النحو فلا شــك في أن ذلك ترك آثاراً ســلبية يمكن أن تكتشف بملاحظة موقف البلاغيين من المعاني الخاصة لبعض الجمل التي لا خصوصية لها من حيث بنيتها النحوية ..

* كلية الآداب – جامعة البصرة

وسنقف في هذه التذكرة عند الجملة الخبرية كما درسها البلاغيون عند تصديهم لها في بداية علم المعاني .. فهي عندهم الأحق بالتقديم والعناية لأسباب نجدها في قول التفتازاني: "وإنما ابتدأ بأبحاث الخبر لكونه أعظم شأناً وأعم فائدة لأنه هو الذي يتصور بالصور الكثيرة وفيه يقع الصياغات العجيبة وبه يقع غالباً المزايا التي بها التفاصيل لكونه أصلاً في الكلام...". (٢)

صدق الخبر وكذبه:

وقد شغلتهم قضية صدق الخبر وكذبه؛ لأنها معروضة في القرآن الكريم بارزة فيه ويمكن أن نمثل لذلك بكون إعلان المؤمنين عن إيمانهم بالله ورسوله ورسالته وهو صدق محض، لأنه خبر مطابق للواقع الخارجي من ناحية ومطابق لاعتقادهم وقناعاتهم أيضاً، فإذا جاءت العبارات نفسها على ألسنة المنافقين فهي كذب خالص يبطنون في أنفسهم خلافه، ولهم في صور الصدق والكذب جدل طويل ذهني في المقام الأول لكنه جدل يدور حول آيات من القرآن الكريم مثل قوله تعالى **{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**. (٣) (٤)

ولاحظوا أن قول المنافقين كاذب بنص الآية لأنه يخالف اعتقادهم مع أنه مطابق للواقع الخارجي، ولاحظوا أن للخبر حالة ثالثة غير الصدق والكذب بدليل قوله تعالى **{أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ}**. (٥) (٦)

فلاحظ الجاحظ أن قول المجنون غير الكذب وهو غير الصدق .. والمهم في بحثنا إن كل حديثهم الطويل عن صدق الخبر وكذبه لا يتعلق بأية حالة أو حالات من الصوغ النحوي. ومن هنا لم يدرسوا صدق الخبر في الشعر العربي مع أن القرآن اتهم الشعراء بأنهم يطلقون لخيالهم العنان ويقولون ما لا يفعلون، ولم يدرسوا ذلك في الحكايات الشعبية وما فيها مما لا يطابق الواقع لكنه من أهم ما تمتاز به الأساليب الفنية.

فائدة الخبر:

من أهم وأخطر ما لاحظوه في دراسة الخبر تحديد الهدف منه بأحد هدفين ما سموه فائدة الخبر ولازم فائدة الخبر. إن صلة هذا التحديد بالنحو مؤكدة لكن هذا التحديد بقي عامّاً ولم تدرس تفاصيله الخطيرة، لأن هذه التفاصيل تخرج بهم عن همهم النحوي.

إن مصطلح الفائدة عام يطالعنا في قول ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم وهذا شرط صحيح لا ريب فيه فإذا قلنا في الطريق أو عند الباب فهذا ليس مفيداً وهو لذلك ليس كلاماً .. وتطالعنا الفائدة في قول ابن مالك :

الخبر الجزء المتمّ الفائدة والمبتدأ وما يتصل به من صفات وبدل وغير ذلك لا يكتمل به فائدة الجمل إلا بالخبر. وهذا مما يتفق عليه، لكن الخلل يبدو من تعريف الفائدة في البلاغة فهي هنا إخبار السامع أما نفس الحكم كقولك زيد قائم لمن لا يعلم أنه قائم ويسمى هذا فائدة الخبر. وأما كون المخبر عالماً بالحكم كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك زيد عندك ويسمى هذا لازم فائدة الخبر. (٧)

نلاحظ أولاً أن الهدف من الخبر ليس له صور نحوية عنهم، ونلاحظ أيضاً أن ما سموه

فائـدة الخـبر افـتراض عقلي. فأين هـو الخبر الذي لا يترك في السـامع أثراً .. يسمع الناس في المطار: وصلت الطائرة، فتلقاه الأم التي تنتظر ابنها بمشاعر غير مشاعر الموظف وغير مشاعر الحمّال ... إلخ. ويسمع الناس في نشرة الأخبار أن الجو سـيكون غـداً ممطراً فيفـرح الفلاح ويستاء الناوي السفر في الغد، وتتأكد ربة البيت من أن نظافة ثياب أسرتها ستتأجل. وكل هؤلاء أبلغوا بما لم يكونوا يعلمون من الأحكام .. وثمة مفارقات من قبيل أن الطالب يسمع من معلمه مما لا يعلم – فائدة الخبر – وفي الامتحان يردد الطالب ما سـمع من المعلم ولا ينطبق ذلك على فائدة الخبر ولا لازمه – فالطالب كان سامعاً ثم جاء مبلغاً والمعلم يراقبه سـامعاً ومبلغاً...إلخ. أما في الأسـاليب الفنية فيمكن الزعم بأن الخبر الذي ليس وراء فائدته زيادة لا يكاد يوجد.

أمـا لازم الفائـدة فقد أصابه تقصـير هائل لا يتصـور فهـذا المصطلـح .. لازم الفائـدة هو المصطلـح المرافـق للكنايـة في كلام البلاغيـين أنفسـهم .. يعـرّف القزويني الكنايـة فيقول بوضـوح شـديد «**الكنايـة** لفظ أريـد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه»[٨].

والغريـب أن ينـسى البلاغيـون تعريفهم هذا للكنايـة في اسـتعمالهم مصطلـح لازم المعنى حين يتكلمـون عن الهـدف من الخـبر. ولازم الفائدة أو المعنى يدل دلالة واسعة على مقاصد المتكلمين، وسنمثل للازم الفائدة بالاقتباس من نـص قديم لا نظن أن أحداً مـن البلاغيين كان جاهلاً به، وهو بخلاء الجاحظ ومن هذا النص الذائـع هذا الخبر الـذي تجمعت فيه عدة جمل خبرية[٩]: روى الجاحـظ «أما ليلى الناعطية – صاحبـة الغالية من الشـيعة – فإنها ما زالت ترقع قميصاً لها وتلبسـه حتى صار القميص الرقـاع وذهب القميص الأول، ورفت كسـاءها ولبسـته حتى صارت لا تلبس إلا الرفو وذهب جميع الكساء، وسمعت قول الشاعر :

لِإبَسْ قميصَكَ ما اهتدَيْتَ لجيبه
فـإذا أضـلَّكَ جَيْبُهُ فـتبدّلِ

فقالت: «إنـي إذن لخرقاء .. أنـا والله أحوص الفتـق وفتـق الفتـق وأرقـع الخـرق وخـرق الخـرق ..».

إن الجاحـظ لـم يصـف الناعطيـة بالبخل مصرحـاً بذلك، ولكن البخل جاء لازماً لما أفادنا به مـن أعمالها وأقوالها، واسـلوبه في سـياقة أخبارهـا يلزم منـه أنه يضحك مـن الناعطية ويريـد إضحاكنا ولم يدر بخلده أبداً أن يخبرنا مجرد إخبار بما تفعله الناعطية وتقوله. وهذا مثـال آخر «وكان يتخذ لكل جبـة أربعة أزرار ليري الناس إن عليه جبتين، ويشـتري الأغداق والعراجين والسـعف مـن الكلاء فـإذا جاء به الحمال إلى بيته تركه سـاعة يوهم الناس أن له مـن الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها وكان يكتري قدور الخمارين التي تكون للنبيذ ثم يتحرى أعظمها ويهرب من الحمالين بالكراء كي يصيحوا بالبـاب: يشربون الداذي والسـكر ويحبسـون الحمالـين بالكراء وليـس في منزله رطل دبس». [١٠]

لازم هـذه الأخبـار إن الخارجـي يجـب أن تكون له شـهرة بالإنفـاق والتبذير والثراء، فـلازم الفائـدة هنـا التبجـح والتظاهـر والخداع. ثم يضيف الجاحظ: « وسمع قول الشـاعر:

رأيت الخبز عزّ لديك حتى
حسبت الخبز في جوّ السحاب
وما روحتنا لنذبّ عنّا
ولكن خفت مرزئة الذباب

فقال: ولمَ ذبّ عنهم لعنه الله، ما أعلم إلا أنه شهى إليهم الطعام .. ثم ألا تركهم تقع في قصاعهم وتسقط على أنفهم وعيونهم، كم ترون من مرة قد أمرت الجارية بأن تلقي في القصعة الذبابة والذبابتين والثلاثة حتى يتقزز بعضهم ويكفي الله شره..»[١١]

إن لازم الفائدة هو البخل الذي يصل إلى حدّ أذى الآخرين، وأهم من ذلك أن هذا الرجل الذي يتباهى بالتوسعة على نفسه وترفيهها لا ينجح، فبخله ينقض ما يدعيه. ومن طلب المزيد من أمثلة الخبر الذي لا يعبر عن دلالات تحته أو هي من لوازمه فسيجد أضعاف ذلك في الآداب الحديثة التي تسبر أعماق السلوك الإنساني في الرواية والمسرحية والفنون المرئية، وقد تغافل عن ذلك البلاغيون القدماء ولم يقفوا إلا عند احتمال واحد .. أن يكون السامع والمتكلم يعلمان بفائدة الخبر بحسب تعبيرهم، وأظن أن سبب هذه الغفلة أو الإغفال أن هدف الخبر ليست له صورة نحوية بعينها.

قد يكون الخبر مجازيا:

من الزوايا التي التفت إليها البلاغيون القدماء ولم يشبعوها درساً. أن الخبر يمكن أن يكون مجازياً يريدون بذلك دلالة غير لازم الفائدة الذي مرّ بنا الحديث عنه.. فالمعنى المجازي الذي أرادوه هو مشاعر المخبر وأحاسيسه وانفعاله الذي يكون هو المراد التعبير عنه، أشار إلى ذلك التفتازاني ومثّل له[١٢] بقول الله تعالى على لسان زكريا (عليه السلام): **{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً}**. إن زكريا (عليه السلام) لا يخبر ربه تعالى بما لا يعلم ولا يلازم ذلك، إنه هنا يتضرع ويشكو ويطلب من ربه ما يفرج همه، هو حائر، قريب من اليأس .. وهو خائف من المستقبل. وكل تلك أحاسيس في نفس زكريا (عليه السلام) عبّر عنها بجمله الخبرية وخلفيته النفسية..

ومثل دعاء زكريا (عليه السلام) هذا قول امرأة عمران أم مريم (عليها السلام) وكانت قد قالت: **{رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً}** لكنها ولدت مريم فقالت: **{رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى}**. هي مثل زكريا (عليه السلام) لا تخبر ربها بما لا يعلم مباشرة أو بدلالة تابعة .. هي هنا تألّمت وتعتذر لأنها لن تستطيع الوفاء بنذرها وهي حزينة لما انتهى إليه حلمها أو أملها .. ويضيف التفتازاني إنه وجد المرزوقي وقف عند هذا في شرحه لقول الحماسي:[١٣]

قومي هُمُ قتلوا أميم أخي
فإذا رميت يصيبني سهمي

«هـذا الكلام تحـزن وتفجع وليـس بإخبار والواضح أن ما يرويه الشاعر مأساة مقفلة، فـإذا ثـأر فهو يقتـل نفسـه، وإن عفا اتهم بالجبـن أو التقصـير في حقِّ أخيـه» ومجاز ذلك التعبير عن الحيرة والحزن وشعور بأنه محاصر، ويضيـف التفتازاني هنا: «وأمثال هـذا أكثر من أن يحـصى». والحقيقة أنه لم يحـاول أن يـرضي تطلع القـارئ إلى المزيد؛ لأن الدلالـة المجازيـة لجملـة الخبر ليسـت متعلقـة بوضع نحوي من أوضـاع الجملـة.

متلازمـة الخـبر:

من هـذه الزوايا التي لاحظهـا البلاغيون في جملـة الخبر ومروا بهـا مسرعين متلازمة الخـبر- وهـي المتلازمـة التـي أولـع بهـا الباحثـون الذين كانوا شـبّاناً قبل سـنوات متمثلـة بمتلازمة الـراوي والمروي والمروي لـه- وهـي عنـد الجرجاني نفسـه مسـماة باسـم المخـبر والمخَـبر والمخَـبر بـه، يقـول الجرجانـي[١٤] « لا يتصـور الخـبر إلا بـين شـيئين مُخْـبَر بـه ومُخْـبَر عنـه فينبغي أن نعلـم أنه يحتـاج من بعـد هذيـن إلى ثالث حتـى يكون له مخـبِر يصدر عنـه ويحصل مـن جهتـه». [١٥] وعِنايـة الجرجانـي بهذه المتلازمـة تبـدو واضحـة أساسـية تقـع في صميـم قناعته بفكرة النظم، فالمعاني تترتب في نفـس واضع الكلام، وتتخـذ هذه المعاني الصـور النحويـة الدالة عليهـا. ولذلك فإن الدراسـة ينبغي أن تتجـه إلى واضع الكلام.

يقـول الجرجانـي: «فـإن الاعتبـار ينبغـي أن يكـون بحـال واضع للـكلام والمؤلف له، والواجـب أن ينظر إلى حال المعاني له لا مع السـامع..».

وهـذه قضيـة شـائكة، فقـد كان شـيوخنا وأسـاتذتنا يبـدأون تحليلهـم وذوقهـم للنصـوص مـن مؤلفيها ويلومون السـلف؛ لأنهـم كانوا يبخلـون بل يهملـون التعريف بالشـعراء ومعاناتهـم وظروفهـم، وهـذا يجعل دراسـة نصوصهم تعتمد على الحدس واللمحـات القليلـة التـي ترد في سـيرهم ثم صرنـا نجـد أجيالنا الجديدة من الدراسـين يعلنـون أن المؤلـف مات ولم يبـق إلا نصه، وهم في هذا يوافقون أسلافهم الرواة النقاد، فالقصيـدة جيدة ممتـازة أو رديئة لا أهمية لهـا، ولا نجدهم يتسـاءلون مثـلاً: هل كان الشـاعر حزينـاً أم سـعيداً حين أبـدع نصه الرائـع. أمـا الجرجانـي الـذي يطالبنا بأن نعنـى بواضـع الـكلام، فطلبـه هـذا علمي محض، فمنـه البداية على كل حال ميتاً كان أمحيـاً.

وبعـد فليـس كثـيراً أن نقـول إن البلاغيين القدمـاء تركـوا لنـا ملاحظـات مهمـة في دراسـتهم للجملة الخبريـة لكنها ملاحظات قلّـت عنايتهم بتفاصيلهـا وهي صالحة لأن تصبـح مدخـلا لمناقشـة قضايا أدبيـة فنية كـبرى، أظن أنـه من المفيـد اسـتدراكها في الكتـب المنهجيـة.

الهوامش :

(١) دلائل الإعجاز: ٢٩.
(٢) المطـول: ١٧٩، وأصله للجرجاني، دلائل الإعجاز: ٥٢٨.
(٣) سورة المنافقون: الآية ١.
(٤) ينظر مناقشـة صدق الخـبر وكذبه بالتفصيل في المطول، ص١٧٢، ١٧٣ وما بعدها. وقد دافع الحريري في مقدمـة مقاماتـه عن تخيلـه للسروجـي وأنكر أن يكون اختراعه مـن الكذب، أما البلاغيـون ففرقوا بين الاسـتعارة– وهي مبنية عندهم على تناسي التشـبيه– وقرروا أنها ليست من الكذب. المطول: ٥٨٦.
(٥) سورة سبأ: الآية ٨.
(٦) المطول: ١٧٦.
(٧) الإيضاح: ٢٧.
(٨) المصدر نفسه: ٢٤١.
(٩) البخلاء: ٣٧.
(١٠) المصدر نفسه: ١٢٥.
(١١) المصدر نفسه.
(١٢) المطول: ١٨٠.
(١٣) االمصدر نفسه: ١٨١.
(١٤) دلائل الإعجاز: ٥٤٣.
(١٥) المصدر نفسه: ٤١٧.

المصادر:

١ـ القران الكريم.

٢ـ الإيضـاح، الخطيب القزوينـي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

٣ـ الجاحـظ، تحقيق: طـه الحاجـري، دار المعارف، ١٩٦٣م.

٤ـ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٥ـ المطـول، سـعد الديـن التفتازانـي، تحقيـق: د. عبدالحميد هنداوي، بيروت، ٢٠٠١م.